

٣٧

لا تلبسوا الحق بالباطل

التلبيس: اختلاط الحق بالباطل بحيث يخفى على بعض الناس ما فيه من باطل لوجود الحق، فيكون سببًا لترك الحق أو لقبول الباطل.

والتلبيس مذموم؛ لأنه من أسباب الضلال والانحراف عن الحق، وهو من صفات أهل الكتاب.

والذم في التلبيس واقع على: من تعمد التلبيس، ومن لـبَّس بغيـر عمـد، ومن تأثر بهذا التلبيس.

والتلبـيس مـن الآثـار العظيمـة فـي ضـعف المسـلمين اليـوم، وتفـرقهم واختلافهم. ومما يدل عـلى خطـورة التلبـيس أن النـاس لا يقبلـون بـاطلاً محضًا، وإنما يقبلونه إذا التبس ببعض الحق.

وحدوث التلبيس في الناس له عدة أسباب، أبرزها:

١ كتمان الحق، وله صورتان:

- **الأولى:** أن يسكت عن الحق كله، ويضعف عن بيان العلم كله، حتى يعلو الجهل ويشيع فيلتبس الحق بالباطل.
- **الثانية:** أن يخفي من الحق في بعض القضايا ما يكون سببًا للتلبيس في هذه القضية.

وأما كتم الحق في زمان أو مكان لسبب شرعي فليس داخلاً في التلبيس.

٢ التأويل وتجنب المصادمة الصريحة للنصوص

فالنصوص معظمة في النفوس، من هنا سلك -من نازع- فيها طريق التلبيس حتى لا يصادم النص صراحة.

٣ الإعراض والغفلة

وهذا هو السبب الأعظم في التلبيس؛ فلا يقع الشخص في اللبس إلا بسبب تقصيره في معرفة الحق، وغفلته عن البحث، وإعراضه عما يجب عليه.

٤ التقليد والتعصب

فينشأ الشخص على معتقـدات منحرفـة، ولا ينظـر فـي النصـوص إلا عـلى ضوئها؛ فتلتبس عليه الأمور.

وهذا مَـــا امتـاز بـه مـنهج أهـل السـنة عـن مـنهج المبتدعـة؛
فعقائد أهل السنة تابعة للدليل سائرة عـلى هديـه بخـلاف أهـل البدع، فإنهم يقررون أصولاً عقلية خارجة عن الدليل ثم يحـاكمون الدليل إليها، فأهل الأهواء يعتقدون ثم يستدلون، وأهـل السـنة يستدلون ثم يعتقدون.

آثار هذه المقولة:

١ خطورة المقدمات الفاسدة:

المسلم قد يتمسك ببعض المعاني الباطلة الملتبسة بالحق، فيظنها من الحق ويسلم بها، ويجعلها مقدمات يبني عليها، وربما هم مع ذلك يعتقدون أن الإسلام لا يتم إلا بما ادعوه من القول بهذا الحدوث، فيكون ذلك سببًا لنفاقهم وزندقتهم، وذلك باطل.

٢ تجنب الإتيان بالحق في سياق نصرة الباطل:

ولهذا لما سمع علي -رضي الله عنه- الخوارج وهم يقولون: لا حكم إلا لله، قال: (كلمة حق أريد بها باطل)، فهذه المقولة حق ظاهر، لكنهم يستعملونها في غير مظانها، ويُلبسون حقها بباطل.

ومما ينبغي أن يعلم أن كل ما يحتج به المبطل من الأدلة الشرعية والعقلية إنَّما تدل على الحق، لا تدل على قول المبطل؛ فإنَّ الدليل الصحيح لا يدل إلا على حق لا على باطل.

فنفس الدليل الذي يحتج به المبطل على -قوله الباطل- هو بعينه إذا أعطي حقه، وتميز ما فيه من حق وباطل، وبان ما يدلُّ عليه، تبين أنه إنما يدلُّ على فسادِ قول المبطل المحتج به في نفس ما احتج به عليه.

٣ تجنب المجملات والمحتملات:

من الخلل الظاهر أن يكون خطاب الشخص قائمًا على كليات مجملة، وقواعد محتملة، يدعو لها دون أن يبين الحق فيها، أو يدفع الباطل عنها.

ومن أهم الأدوات الكاشفة عن اللبس في المجملات: الاستفصال عما يشتبه من المعاني، حتى لا يقبل باطلاً أو يرد حقًا وهو غافل عنه.

٤ الوعي بخطورة الأفكار التلفيقية:

وهي التي تسعى لأن تُقرّب المفاهيم الباطلة إلى الإسلام، كمثل دعوات الأسلمة للعلمانية أو الاشتراكية أو الحداثة ونحوها من المفاهيم الباطلة، فيسعى إلى تقديم صورة ملطفة من هذه المفاهيم ويُخفّف باطلها حتى تقبله النفوس.

٥ استحضار المسؤولية الشرعية:

التباس الحق بالباطل لا يأتي غالبًا إلا بسبب تقصير من الإنسان في التعلم أو البحث أو السؤال، فيتأثر بسبب ذلك بأدنى عارض، وهذا من قلة التقدير للدين ولحق رب العالمين.

على أن تفريط الإنسان في فتح الشبهات على قلبه هو من الاستهانة بنعمة الإيمان، والاستخفاف بدرجة الطمأنينة واليقين، فيُخشَى على مثل هذا أن يخذله الله، وأن يبتلى بالشك والحيرة.

٦ الوعي بخطورة التزيين:

الباطل قد يُزيّن في عين الإنسان فيستحسنه ويحبه، ويرى جماله وفضله، وهذا هو مفهوم التـزيين، وهـو يقـوى مـع التلبـيس؛ لأنَّ الباطل المحض لا يُزَيَّـنُ غالبًا في عين الإنسان.

ومـن التـزيين الانسـياق خلـف الشـعارات البراقـة والعبـارات المزخرفـة والـدعوات المجملـة بحسـن اللفـظ، فيغتـر كثيـر مـن الناس بالشعارات، ويطير مع زخرف القول.

٧ تجنب الشبهات:

توارد الشبهات من أسباب التلبيس، والواجب على المسلم أن يبتعد عنها، ولا يطلع إلا على ما يحتاج إليه، فالشبهات صادةٌ عن الحق، وملبسة به الباطل؛ غير أنَّ هذا التجنب لا ينفي ضرورة الرد على الشبهات، ودفع ما يورد على النصوص والأحكام الشرعية، فترك الجواب عنها سبب للتلبيس.

ومن المهم التمييز بين الرد على الشبهات عند الحاجة أو الضرورة وبين أن يكون هو الأصل، فهي من قبيل العلاج، وأما بيان الأحكام ونشر العلم وتوضيح السُّنَّة فهو من قبيل الغذاء الذي يحتاجه كل أحد.



٣٨

الإسلامُ يَعْلُو وَلا يُعْلَى عَلَيْهِ

وهذا العلو هو علُو سلطانٍ أو علو حجَّةٍ، فالإسلام يعلو بسلطانه فيكون له القوة والتمكين في الأرض، أو يعلو بحججه وبيانه فيكون له الظهور والبيان؛ قال تعالى: {بل نَقْذِفُ بالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [الأنبياء: ١٨].

وهذا العلو يحصل للمسلم بقدر تمسّكه بالإسلام، -الذي هو مصدر عزه ونصره- فإذا تخلى عنه، أو فرط في الأخذ بأحكامه فإنَّه لا يستحق هذه العِزَّة، كما قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: (إنَّا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نلتمس العز بغيره).

آثار هذه المقولة:

١ الاستعلاء الإيماني:

لا يخفى على أحد أن سطوة الثقافة الغربية والارتهان لها والخضوع لمنظومة المعايير المرتبطة بقيمها، من أعظم الأسباب المؤثرة في ظاهرة التحريف والانحراف المعاصر، فكل الشبهات والاعتراضات على الأصول والأحكام إنَّما تتحرك إذا عارضت هذه الأحكام تيار الثقافة الغربية.

ومن سُنَّة الحياة أنَّ المغلوب مولع باتباع الغالب، فليست القصة قائمة على جانب عقلاني مقنع في الثقافة الغربية بقدر ما هو انكسار أمام هيمنتها، ورضوخ لسطوتها، وضعف أمام سلطانها المادي.

وهنا يأتي اعتزاز المسلم بدينه وشموخه بعقيدته، واستعلاؤه عن سطوة الغالب، فلا يكون لها أثر على أصول دينه.

فمن يدرك أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه لا يضعف ولا ينكسر حين ينهزم أمام الكافر في أي زمان ومكان، فالكافر قد يتسلط على جسده لكنه لا يصل إلى روحه المؤمنة الموقنة المعتزة.

ومن يطلع على الأفكار الغربية وهو يُعظم أهلها ويحتقر أهل الإسلام ويشعر بضرورة التغيير والاستفادة بلا اتزان، فإنه سرعان ما ينساق مع أدنى اطلاع وأقل انفتاح على هذه الثقافة، ليس لقوَّة الوارد بل لضعف المحل.

٢ عدم مساواة المسلم بالكافر:

فالكافر لا يساوي المسلم، كما قال تعالى: {أفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} [القلم: ٣٥]، وبناءً على هذا جاءت أمور يختص بها المسلم عن الكافر، كالولاية والشهادة، وقد كان العلماء يستدلون بعلو الإسلام على هذه الأحكام.

٣ ذم التشبه والتقليد:

فعلو الإسلام يقتضي من أتباعه أن لا يتشبهوا بغير المسلمين، وقد جاء في الحديث: (من تشبه بقوم فهو منهم). وهذا التشبه يشمل من قصد التشبه بهم ومن لم يقصد، فالتشبه يعم من فعل الشيء لأجل أنهم فعلوه، ومن تبع غيره في فعل لغرض له في ذلك إذا كان أصل الفعل مأخوذاً عن ذلك الغير.

٤ الاستغناء الذاتي:

المسلم في دينه الغناء والشفاء والكفاية، فليس هو بحاجة إلى أن يبحث في كتب الفلاسفة، أو ينظر في كتب الأديان ليبحث عن حق غائب، أو يجيب عن سؤال، أو يدفع شبهة؛ لكن قد ينتفع بكلام كل طائفة من طوائف أهل الكلام والفلسفة في بيان فساد قول الطائفة الأخرى، لا في معرفة ما جاء به الرسول ﷺ، فليس في طوائف أهل الأهواء والبدع من يعرف حقيقة ما جاء به الرسول ﷺ.

٥ الصدع بالمعاني التي جاء بها الإسلام:

مـن آثـار الاعتـزاز بالإسـلام، واستحضـار علـو سـلطانه أن يصـدح المسلم بمعاني الدين، ويدعو الناس إليها، ويجهر بهـا دون خجـل أو ضعف.



٣٩

ولا تـتمنّـوا ما فضَّل الله به بعضَكُم على بعض

المسلم يعرف أنَّ الله يُفضّل بعض الخلق على بعض لحكم كثيرة، وأن هذا التفضيل لا يقطعهم عن الطريق إلى الله، فيسلم لهذا التفضيل، **ويلتزم بما يترتب عليه من أحكام، ومن ذلك:**

التفضيل في المكانة والفضل

فضل الله الأنبياء على جميع خلقه، كما فضل بعض الأنبياء على بعض، وفضل صحابة النبي ﷺ على بقية هذه الأمة، وكما فضل أهل الإيمان من سابقي هذه الأمة بما اختصوا به من نشر للعلم وجهاد في سبيله.

فيسلم المسلم لهم بهذا الفضل ويحبهم ويدعوا لهم.

ومن التفضيل أيضًا:

- تفضيل جنس العرب على غيرهم، وتفضيل قريش على جنس العرب.
- تفضيل جنس الرجال على جنس النساء.

فهذا تفضيل شرعي يُسلّم به المسلم **لكنه من قبيل تفضيل الجنس على الجنس لا الأفراد، ولا أثر لهذا التفضيل بالجنس على الحكم على الأعيان والأفراد؛ ففضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص**، بل التفضيل بين الأفراد راجع للإيمان والعمل الصالح.

التفضيل في التكاليف

يفضل الله بعض الخلق في بعض الأحكام وذلك لحكمة، ومن ذلك:

التفضيل في الولاية، فالسلطنة شرف وفضل على من دونـه، وهـذا الفضل مبني على تكليف ويترتب عليـه أحكـام تسـتقيم بهـا شـؤون الحكم.

والوالدان لهما شرف وفضل عـلى أولادهمـا، ولـولا هـذا التفضـيل لضاع البر والإحسان.

والزوج له فضل القوامة على زوجته، ولولا هذا التفضـيل والأحكـام لما استقامت شؤون الأسرة وانحل رباطها.

آثار هذه المقولة:

١ تجنب التعيير والتنقص وهضم الحقوق:

فهذا التفضيل قائم على حكمة، وترتب عليه أحكام وحقوق وواجبات، ولا يستلزم النقص عند الله، ولهذا فليس هو محلاً للتنقص والتحقير أو الحط من قدر أحد من الناس.

٢ التكامل لا التصارع:

فهذا التفضيل قائم على التكامل لا الصراع، ولكل طرف من الحقوق تقابل الواجبات التي عليه القيام بها، فهي علاقة تقوم على التكامل لا الصراع والخصومة.

٣ إدراك كمال الحكمة:

من الآثار المهمة إدراك أنَّ هذا التفاضل هو من كمال حكمة الله، وأنه لو زال هذا التفاضل لاختل نظام الحياة، ولو تصور الإنسان الحياة بلا تفضيل لظهر له من الفساد ما يفهم به حكمة التفضيل، وهذه طريقة مهمة في دفع الإيرادات، وهو أن يتصور الحالة المضادة لها ويتأملها، فبضدها تتميز الأشياء.